عصر الانحطـاط
عصر النهضـة
خدعـــة آن لهـا أن تنتهـــي

الشيخ جعفر المهاجر

يندر أن نجد في تاريخ الأمم خدعة مثل هذه التي صنّفت تاريخ عرب المشرق خصوصاً (مصر) و (الشام) إلى عصرين، عصر انحطاط، وعصر نهضة. على أساس أن عصر الانحطاط يصل إلى نهايته في آخر القرن الثامن عشر الميلادي، ممتداً في الماضي زمناً غير بعيد محدد، ولكنه بالتأكيد يشمل الفترة العثمانية والمملوكية والأيوبية ليبدأ من بعده عصر النهضة.

ومفهوما الانحطاط والنهضة مفهومان معقّدان نسبيّان لا يمكن أن يتحققا في صورتهما النقية النموذجية. وحتى نظرياً يصعب أن نضع لهما حدوداً صارمة يتفق عليها جميع الناس. ولكنهما مع ذلك ليسا غائمين ضائعي المعالم تماماً، إلى درجة أن الناس كل الناس وبمختلف مستوياتهم يختلط عليهم الأمر بينهما جيلاً بعد جيل. وعلى هذا فإذا كنا نقول أن في ذلك التصنيف مخادعة فإن علينا أن نقدّم تفسيراً لكونها انطلت على كل أولئك الناس هذا الزمن الطويل. لكن علينا أن نقول أول أين هذه الخدعة، ثم مَن المخادع، ولماذا؟

بطلا النهضة: وأصحاب هذا الاتجاه أيّاً كانوا يرون إلى الحملة النابوليونية التي نزلت مصر في السنة 1798م. الباب الذي دخلت منه النهضة لأن قائد الحملة جاء بمطبعة عربية، واصطحب رجال علم قاموا بدراسات على الطبيعة المحلية والتاريخ المصري القديم ثم نشروا بعض الكتب وفيها نتائج أبحاثهم. ثم إن النهضة الحقيقية بدأت على يد محمد علي الذي حكم مصر ابتداءً من السنة 1805م. أي بعد سبع سنوات من بدء الحملة الفرنسية. وينسب إليه أنه نظّم شؤون الدولة وأنشأ الدواوين والأجهزة الحكومية حتى صار لها مظهر الدولة الحديثة وأنشأ جيشاً وأسطولاً قويين. ومنشآت عديدة للري. وكذلك الكثير من المعاهد والمدارس والمصانع وأرسل عدداً من شبان مصر إلى أوروبا عملوا بعد عودتهم في مدارس مصر ومعاهدها ومؤسساتها. وفتح باب بلده للأجانب وشجعهم على العمل في التجارة والصناعة والزراعة. بحيث دخلت مصر على يده في طور جديد سبقت به كل الولايات العثمانية.

عصر انحطاط: فلننظر أولاً في مبررات وصف تلك الأزمان بأنها كانت عصر انحطاط لنرى هل تستحق بالفعل هذا الوصف.

مما لا ريب فيه أن دخول العناصر العسكرية القادمة من أطراف دار الإسلام واستيلائها على الحكم في المراكز الحضارية الكبرى وقد زاد من عمق الهوة التي كانت تفصل بالفعل بين الجمهور والسلطة بالفعل بين الجمهور والسلطة. من حيث أن هؤلاء قد فرضوا من خارج كل المفاهيم السائدة للشرعية. ثم اسسوا طبقة عسكرية مغلقة ذات امتيازات هائلة عملت بكل ما لديها من قوة، وبقسوة متناهية عند اللزوم، على حياطة امتيازاتها. وفي سبيل ذلك سخّرت السيف بالإضافة إلى نمط من الفكر المرتزق نما نمو الطفيليات على هامش السلطة كان الفكر السياسي أو ذا الوجه الوجه السياسي الوحيد الذي أُتيح له أن ينمو ويصل إلى الجمهور. وعلى هذا فإذا كان الوصف بالانحطاط يُقصد به تلك السلطة وسياستها (الفكرية) وما نما على هامشها من فكر رسمي، فهو وصف صحيح إلى حد بعيد.

ولكن إذا اخذنا في الاعتبار ما جرى فيما بعد وانسجاماً مع نسبيّة الانحطاط والنهضة. وخصوصاً أننا لا نشغل بالنا بالبحث عن حالتين نقيتين نموذجيتين، لسبب سبق بيانه، فإن علينا أن نقيّم الأمور من زاويتين أخريين الأولى: أن كافة أشكال السلطة في تلك القرون بشتى نماذجها كانت تلتقي عند أمر لا نزاع عليه إذ تمخض ولاءها خالصاً لما كان يُعبّر عنه بـ(بيضة الإسلام) يعني هذا الكيان بحدوده العقائدية والمادية. حقاً أنها كانت برّانية فكرياً على وجه العموم ولكنها كانت ترى إلى أرض الإسلام كأمر مقدس يستحق أن يُبذل في سبيله كل غالٍ وثمين. كما ترى إلى تسلّط الأجنبي بالمعنى العقيدي كأمر مرفوض يراجه بأقصى ما تملكه البلاد من قوى نفسية ومادية. هذا ما يمكن أن نلخصه بالذاتية والتماهي بين العقيدة والإنسان والأرض. الذي يعود إلى أن المعتقد الديني شكّل وشيحة كافية عملياً بين السلطة والناس، ألفت إلى حد بعيد تأثير الهيمنة بالقوة. وعلى هذا فإن أبطالاً تاريخيين وشعبيين مثل نور الدين محمود وصلا الدين والظاهر بيبرس، لم يكونوا ظواهر معزولة تدين ببروزها إلى عبقرية هؤلاء العسكرية والسياسية وقوة نفوسهم فقط، بل ينبغي أن يفهموا كإفراز عضوي من قلب المفاهيم والقيم الشعبية. تلك التي أدى ما أصابها من خلل فيما بعد إلى أن عمقت الأمة عن أن تنجب أبطالاً لهم معنى ووزن أولئك.

من هنا نفهم أيضاً كيف نجحت الأمة في رد عادية الصليبيين والمغول لعد أن انتصرت عليهم في ثلاث معارك فاصلة حطين وعين جالوت والمنصورة. ومن المعلوم أن انتصارات كبرى كهذه ليست جرد عمل عسكري بل هي إنجاز حضاري متكامل تساهم في كافة عناصر الحضارة فكرية ومادية. وعندما تفلح أمة في كسب ثلاثة انتصارات كبرى على التوالي ضد أكثر من عدو وفي فترة تقل عن القرن، فمن الظلم الكبير وضفها بالانحطاط. من هنا أيضاً نفهم لماذا عمل الغرب الاستعماري ومعه الصهيونية على إزالة الدولة العثمانية من الطريق كشرط لا منه لاستفرادها بالمنطقة والإمعان في تمزيقها وتقسيمها مثل تركة لا وارث لها وضمناً انتزاع فلسطين. لقد كان دهاقنة السياسة الاستعمارية يدركون منذ قرنين ما لم يُفلح بعض مؤرخينا في رؤيته حتى اليوم. وهذه مناسبة نذكّر فيها بأن السلطان عبد الحميد آثر أن يعاني من مختلف المكائد الاستعمارية على شخصه وبلاده على أن يبيح قسماً من فلسطين لليهود.ولو أنه فعل لملك سعيداً ولدخل اسمه التاريخ بصورة مختلفة تماماً.

الثانية: في تلك القرون أيضاً كانت بلادنا تنتج كل ما تحتاج إليه ولم تكن تستورد إلا القليل، وأغلبه من باب الكماليات وأدوات الترف من فراء ومجوهرات وتحف. المراعي والحقول تنتج الطعام والمحترفات الأدوات والسلاح. أما النسيج فقد كان هناك دائماً فائض ممتازمنه جاهز للتصدير. في مقابل استيراد مواد أولية قليلة كبعض المعادن والأخشاب الثمينة غير المتوفرة في المنطقة. إن قراءة سريعة في كتاب الرحلة لابن بطوطة الذي طاف العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه في أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عسر الميلادي، ودوّن ملاحظات ومشاهدات حول مختلف الشؤون تُظهر لنا عالماً مختلفاً بشدة عن هذا الذي نعرفه اليوم، وتضع يدنا عليه بلمسة صارت نسياً منسيّاً. عالم مكتف بإنتاجه من الطعام واللباس والسلاح والأدوات. والحقيقة أن وصف الرحلة للصنائع وبدائعها ومختلف الزرع في كل بلد بلد ترينا عالماً متكاملاً من الوجهة الاقتصادية هذا على الرغم من أن الرحالة كأي رحالة لم يكن في وضع يؤهله لتقديم تقرير دقيق عن الموضوع. ونشك في أنه كان يقصد تتبّع عناصره. ولكنه كان لا يمكنه إلا أن يلاحظ الاختصاصات المناطقية في الإنتاج الصناعي والزراعي. ولو أن ابن بطوطة عاد اليوم لسألنا اين ضاع كل ذلك، وإذ يسمع اعتذارنا إليه بالاستعمار والتبعيّة سيشتمنا في وجوهنا ويدير ظهره ويمضي كسير القب.

مرة أخرى. مجتمع كهذا لا يمكن وصفه بالانحطاط.

عصر نهضة: من الغني عن البيان أن الحملة النابليونية على مصر ثم الشام لم تكن شيئاً غير غير حركة استعمارية. أملاها غرور قائدها العسكري وفجاجته العسكرية. حيث ثبت فيما بعد، أن عملية نقل الصراع بين نابليون وخصومه السياسيين ن مسرحه المحلي يعني أوروبا إلى الشرق كان أمراً باهظ التكاليف. وقد ظهر فشلها بسرعة وبكل المعاني وفي رأسها المعنى السياسي والمعنى العسكري لأسباب عدة يهمنا منها الآن المقاومة الشعبية في مصر. ثم جاء من يقول فيما بعد، ولكنها نجحت في أمر واحد هو فتح الباب للنهضة في مصر ومنها انداحت في الشرق بالتوجيه الذي ألمحنا إليه آنفاً.

ولسنا ندري على وجه التحديد ولقد كان من المفيد أن ندري مَن الذي اخترع هذه الأكذوبة الوقحة. بيد أن يكاد يكون من المؤكد أنها أتت من حيث خرجت الحملة نفسها. فنحن لا نجد أية إشارة في المصادر المحلية التي أرخت لـمصر إبان الحملة وعلى رأسها تاريخ الجبرتي عجائب الآثار أي إشارة إلى النعم التي هبطت على البلد على أنه يذكر المطبعة ويشير إلى بعض المؤسسات والنشاطات العلمية. وسنقول رأينا في هذا كله.

ولقد نعلم أن الفتوحات والأعمال العسكرية هي من المناسبات التي تتلاقى فيها الشعوب فتتعارف وتناقف ويأخذ بعضها عن بعض. ولعلها كانت من أهم أسباب ذلك قبل أن يحدث هذا التلاقي العظيم الذي أتاحته وسائل الاتصال والانتقال الحديثة بحيث انكشفت الشعوب والأمم أمام بعضها البعض. لكن الجرب لا تؤتي هذه الثمار إلا بشروط عليرأسها التلاقي الحر بين الشعبين الغازي والمغزوّ الذي يأتي عادة في فترة السلام التي تلي الحرب، إذ يسقط حاجز اللغة حيث يكون فضلاً عن حاجز الحرب ذاتها. وهو أمر يقتضي زمناً كافياً وشروطها نعتقدجزماً أنها لم تحقق هنا.

قضى الفرنسيون في مصر ما يزيد قليلاً على الصلاص سنوات لم تخمد خلالها المقاومة الشعبية التي نهضت في وجوههم. لا في الأرياف ولا في الحواضر. هذه المقاومة التي وصلت إلى قممها في اغتيال أول قائد للجيش بعد رحيل نابليون عائداً إلى فرنشا المدعو (كلبير) ويسميه الجرتي (كلهير) مع يد شاب حلبي، أتى مصر من بلاده لهذا الفرض. من هنا فإن المستعمرين الفرنسيين لم يقر لهم في مصر قرار، ولم ينجحوا في إقامة علاقات طبيعية مع الناس على الرغم من أنهم والحق يقال بذلوا مجهوداً صادقاً في هذا السبيل. لكن الحاجز المتمثّل في رفض سلطة غير المسلم كان أعلى من أن يتجاوزه مع كل ما ملكت أيديهم من عبقرية عسكرية وأدوات سيطرة وتقدم حضاري. من هنا فإن صلاتهم انحصرت تقريباً بأبناء دينهم من القبط وتجار الإفرنج وبعض مسلمين ممن تداخل معهم... وكثير

من نصارى الشوام والأروام (الجبرتي: 2/ 476) هؤلاء آثروا أن يرحلوا مع أسيادهم خوفاً من غضب الناس. والجبراي تقدم لنا في الصفحة نفسها وصفاً حيّاً لحالة الهلع التي سادت أولئك الناس، وقد اخذوا يبيعون متاعهم ولا يستبقون إلا ما خفَّ حمله وغلا ثمنه، حتى أن بعضهم طلّق زوجته تخففاً. ومن هنا نعرف أن الصلات الثقافية التي نمت على هامش الوجود الفرنسي كانت محصورة فضلاً عن أنها رحلت من بعد مع العائدين. بحيث يمكن القول بقدر كافٍ من الثقة أن ما زرعه القوم قد علق بأظلافهم وهم خارجون.

أما ما يُقال عن علماء رافقوا الحملة وأدوات علمية حملتها بما فيه مطبعة ونشاط علمي صدر عنها، فهر صحيح إذا عني به ما حدث فعلاً. ولكن المخادعة هي في المنّ علينا بها وتحميلنا جميلها ومطالبتنا بالاعتراف بفضلها باعتبارها من أدوات نهضتنا. والحقيقة أن هذه كلها لم تكن إلا جزءاً من الحملة ولم تخدم إلا مشروعها الاستعماري وأسلوباً متقدماً بالنسبة للخبرات الاستعمارية في ذلك الزمان في ممارسة النهب وفرض السيطرة. مثلها مثل الجندي والمدفع سواء بسواء. إن زيارة واحدة لقسم الآثار المصرية الغني في متحف (اللوفر) في باريس تضعنا أمام الغايات الحقيقية من العناية التي منحها نابليون وعلماؤه للآثار المصرية والمطبعة العربية. التي لم تكن الأولى على أية حال كما يتبجّح منظّروا النهضة، لم تستخدم إلا في طباعة المنشورات الوجهة للشعب المصري، لأغراض سياسية واضحة. والأجهزةوالمؤسسات العلمية لم تكن إلا وسيلة للتأثير على المجتمع المصري بغية إقناعه بتقدم وقوة غزاته. والجبري يقدم لنا في أكثر من مكان من الجزء الثاني من تاريخه وصفاً مفصلاً لحيل كيميائية وفيزيائية استعراضية كان الفرنسيون يحملون الناس أو يغرونهم بمشاهدتها تُظهر لنا كم كانت محاولات فدّة وسطحية ومثاراً لهزئه هو على الأقل. وأن من الإزدراء بالنهضة ومَن نهضت بهم أن يقول قائل هكذا نهضت أمتنا.

مسألة محمد علي ودوره في النهضة ليست مفضوحة ولا بسيطة لهذه الدرجة. فهنا نواجه تاريخاً حقيقياً لا تنقصه العناصر الحديثة ونواجه خطة محكمة وراءها رجل قادر. ولكننا نواجه أيضاً غياباً للتحليل العلمي الصادق على أساس من مفاهيم واضحة ودقيقة.

نزل محمد علي مصر كضابط عثماني في القوة العسكرية التي أرسلها العثمانيون في نطاق التسوية السياسية الدولية لتصفية الوضع الذي نشأ عن مغامرة نابليون (وبالمناسبة فهذه أول تسوية سياسية يمكن وصفها بـ دولية يكون موضوعها بلد مسلم) وخلال الفوضى التي عمّت مصر بعد خروج

الفرنسيين منها، نجح في القبض على مقاليد السلطة. وبعد أن صفّى أمراء المماليك الذين كانوا يشكّلون طبقة إقطاعية مسيطرة في السنة 1881 صار سيد وادي النيل دون منازع.

أراد محمد علي أن يجعل بلده في مستوى البلدان المتقدمة وعمل لذلك بكل قوة وجدارة مستلهماً المعطيات الأساسية من تجربة الأمم الأوربية متبعاً سياسة داخلية تقوم على إصلاحات تناولت الزراعة والصناعة والتجارة. كما شجّع الهجرة الأجنبية إلى مصر. إلى جانب سياسة خارجية تتطلع إلى التوسع وتأسيس نفوذ قوي ذي منحى استقلالي عن الدولة العثمانية ترتكز على جيش نظامي قوي منضبط وحسن التسليح.

تثير شخصية محمد علي وأعماله جدلاً كبيراً. ففي حين يمكن أن نرى فيه مجرد مغامر آخر في سلسلة طويلة من المغامرين العسكريين الذين يحفل بهم تاريخ المنطقة. وجد فرضيته في ضعف الدولة العثمانية والفوضى التي أحدثها الاحتلال الفرنسيل لمصر، لكي يؤسس ملكاً بحجم طموحه، لا يمكن لأحد أن ينسى خصوصيته كحاكم تملؤه الحماسة لإنهاض بلده تنموياً وسياسياً وعسكرياً. وكان عنده القدر الكافي من الغيرة عللى المصلحة الإسلامية العليا كما يفهمها أو على الأقل القدرة على التظاهر بذلك، لمصلحة سياسية واضحة. لكنه بالمقابل لم يكن عنده الخبرة الكافية بأحابيل دهاقنة الاستعمار، أمثال معاصريه مترنيخ وتاليران وبالمرستون وبمراميهم البعيدة في السيطرة الشاملة العميقة وبأدواتها التي كانت تبدو بريئة حتى ذلك الحين. أضف إلى ذلك أنه كان على الرغم من كفاءته السياسية لا يتمتع بأي إدراك لأهمية المحافظة على تماسك الجهة الثقافية لشعبه. كما أن شعوره بالحاجة إلى أوروبا كان سبباً كافياً عنده لتحسين صورته أمام الرأي العام الوربي. لذلك فإنه عمل ربما دون أن يدري على تمهيد الطريق لتحقيق سياسة أوربية مزمنة للتغلغل في أعماق نسيج الشرق المسلم. وعلى أنه عانى كثيراً من المنافسة الأوربية على بلده. لكنه لعب بمهارة على التناقضات السياسية بين الدول الاستعمارية المتنافسة. لكن هذه كانت تعرف كيف تقتسم الجبنة في النهاية بحيث لا يخرج الجميع خاسرين. لم يكن محمد علي يفهم التقدم إلا في صورته الأوربية. كان يتباهى بأنه صاحب (عقل افرنجي. الأمر الذي استغله الاستعماريون الأوربيون إلى أبعد الحدود. والحقيقة أن سياسته في الميادين التنموية والعسكرية والسياسية كانت الباب العريض للتدخل الاستعماري ليس في شؤون مصر وحدها بل في كل الأراضي التي كانت تحت الراية العثمانية. إذ أدت إلى فتح البلاد أمام أوروبة وثقافتها ومبشريها واقتصادها وبدأت حملة صليبية تتفق في بواعثها

وأهدافها مع متطلبات التوسّع الشره لدى الدول الأوربية القوية. كان محمد علي لبلد قوي، لكن دون أن يعني ذلك عنده إلا جيشاً قوياً أي في النهاية يداً أقوى تقبض على السلطة وإلا تغذية أفضل لخزينته. أما العدالة خصوصاً الاجتماعية فذلك ما لم يخطر به ببال كان همه محصوراً بالحليب وعلى البقرة أن تعطي بأي وسيلة.

بمناسبة الحديث عن العدالة ننوه هنا بإعجاب الجبرتي الذي وصل إلى حد الدهشة بالإجراءات الدقيقة التي اتبعها الفرنسيون في محاكمة سليمان الحلبي قاتل قائدهم (كليبير) وهو الذي قُبض عليه فيما يشبه الجرم المشهود. ولهذا فإنه أثبت النص الكامل لمحضر المحاكمة لما فيه من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين. وكيف قد تجرّى على كبيرهم ويعسوبهم رجل يفاقي أهوج وغدروه وقبضوا عليه وفرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم لمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه وجدوا معه آلة القتل ملطخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة. بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من فعل أو باش العسكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجّريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد (الجبرتي: 2/ 359 وما بعدها). هوذا ضمير اضعب يُفصح عن مكنونهناعياً ضمناً الفردية والمزاجية والسلطوية عند حاكميه. وهوذا جانب مما فشل محمد علي في رؤيته وهو يسعى إلى إنهاض بلده: الإنسان وكرامته وحقوقه التي لا يمكن أن يرتفع بناء النهضة إلا على أساسها.

لم يكن محمد علي يحمل أي مثال أخلاقي. والحقيقة انه في سلوكه مع الرعية لم يكن يختلف كثيراً عن أي أمير مملوكي أو وال عثماني. خصوصيته الكبرى والوحيدة هي في هذا النزوع الغامض والعجيب إلى اتخاذ أوروبة والاوروبين مثالاً له. وهو نزوع غريب جداً بالنسبة لعصره ومقاييس عصره والقدوات المتاحة حتى ذلك الحين. ولكنه ليس بهذه الدرجة من الغرابة إذا أخذنا في الاعتبار أصل الرجل ومنبته الأوربي. تُرى هل يمكن التحدث عن علاقة بين أصل محمد علي الأوربي وإن يكن إلى ريف أوروبة وبين هذا النوع؟ هل كان هذا الألباني وهو يعمل جاهداً على بناء مصر على مثال أوروية يصدر عن آلية عقلية تدور حول وطنه البعيد؟ الجواب يحتاج إلى دراسة مستقلة.

لقد قيل كلام كثير في أسباب فشل سياسة محمد علي، خصوصاً التنموية التي تطلّعت إلى جعل مصر بلداً صناعياً على مثال الدول الأوربية المتقدمة. ولا ريب بأنه كان للمؤامرات الاستعمارية دوراً غير

منكور في النتيجة المؤسفة التي رست عليها جهود حاكم مصر أخيراً. ولكن كيف لامرئ أن يغض الطرف عن أسباب وعوامل أخرى لا علاقة لها بالاستعمار ومكائده بل بسياسةمحمد علي وشخصيته؟ كيف يمكن أن ننسى أنه وضع نصب عينيه فاً يكاد يكون مستحيلاً لاعتبارات تاريخية واجتماعية؟ من حيث أنه أراد أن يُقيم نهضة صناعية لا تتوفر لها القاعدة المناسبة ولم يسلك إليها الطريق الصحيح اعتقاداً منه أن مجرد استيراد الخبراء والآلات يفتح أمامه باب الإنتاج الصناعي متجاهلاً خبرات الشعب المحدودة في هذا المجال والحاجز الثقافي الذي يقف بين الإنسان وآلة هي إنتاج ثقافة مغايرة. ومتجاهلاً أيضاً وبشكل يثير الحنق والأسى الدور الذي يمكن أن تساهم به أنماط الأبداع المحلية فيما لو أتيح لها إنسان آخر يفهمها ويحسن الإفادة منها. لكل ذلك فإنه اصطدم بالحاجز الذي اصطدمت به عامة مشروعات التنمية الصناعية من بعده حتى اليوم، حاجز قوامه تمنّع الناس ورفضهم العمل في مصانعه. وحلّ محمد علي المعضلة بطريقة الغجّة التي تعبّر عن شخصيته، فالتجأ إلى نظام السخرة أي سوق الناس بالقوة للعمل في مصانعه، وعلى الرغم من ذلك فإن الصناعات التي أقامها كانت باهظة التكاليف بحيث أن المنسوجات التي كانت تنتجها كانت أغلى بكثير من أسعار المنسوجات التي يمكن أن يستوردها من بريطانيا (جلال أحمد أمين: المشرق العربي والغرب/ 20 وما بعدها) هذا فضلاً عن مغامراته العسكرية الباهظة التي وصلت إلى اليونان والحجاز والأناضول مرورتاً بسورية. والتي كانت تستنزف خزينته المرهقة، ولم تجرّ عليه سوى الخراب. ومن هنا نرى أنه بين مشروعات تنموية تفتقر إلى التخطيط السليم وبين مغامرات عسكرية متوالية وباهظة التكاليف فإنه في نهايات أن نتصور نجاح مشروع محمد علي حتى لو تحرر من كل ضغط خارجي. وهكذا فإنه في نهايات فترته كتن كل ما بقي من ذلك البناء الصناعي الضخم الذي كلف الملايين لا يزيد على كمية من الآلات اتي علاها الصدأ متناثرة في أنحاء البلاد في مبان متداعية مهجورة. وكانت حصيلة سياسته أن حجم التدخل االستعماري وصل إلى درجة أنه كان على الباشا العجوز أن يستجدي من رؤساء وزرات انكلترا والنمسا وفرنسا أن يمنّوا عليه ببقاء الحكم في عقبه من بعده. وكان لمحمد علي ما أراد. ولكننا جميعاً نعرف بدرجة وبأخرى الثمن الباهظ الذي ظلت مصر تدفعه جيلاً بعد جيل من استقلالها وحريتها وكرامتها...الخ. نتيجة هذا المسعى الأخير لبطل النهضة وليس يصعب على أي كان أن يرى الصلة بين الأوضاع السياسية التي سادت مصر منذ الأيام الأخيرة لمحمد علي، وحتى سقوط آخر ملك من سلالته وبين ماأشرنا إليه. فعندما تأتي

السلطة إلى الحكم مدينة للاستعمار فإن على البلدكله أن يدفع الفوائد مركية، حتى يقيّض له أن يشتري حريته من جديد.

والآن اين النهضة في هذا كله؟

لا شيء تقريباً، إذا كان نعني ما ينفع الناس.وزبد كثير إذا اعتبرنا حجم الادعاءات الضخمة التي تصوروه بطلاً رائداً ورجلاً تاريخياً. المنتفع الأكبر ونكاد نقول لاوحيد من سياسته وأعماله هو الاتعمار الذي كان يتلهف لموطئ قدم في المنطقة فجاء محمد علي ليمنحه الفرصة التي لم تكن في الحسبان بحيث تغلغل دفعة واحدة في سياستها اقتصادها وانفتح أمامه الباب عريضاً لحقول وميادين أخرى لم يتقاعس عن ولوجها نخص التربية والإعلام مما سنشير إليه بعد قليل.

فالحقيقة أنه إذا كان ثمة وجه للكلام عن نهضة ما هنا فإن أولى الناس بأن تنسب إليه هو الاستعمار الذي تابع مذ ذاك تقدمه السريع خصوصاً على جبهة مصر متخذاً منها ومن لبنان الذي سقط في شراك الاستعمار نتيجة لسياسة محمد علي وابنه ابراهيم في سورية منصة للقفز على المنطقة كلها لبسط سلطانه الثقافي والإعلامي والرتبوي خصوصاً. وها هنا بالذات قصة جديرة بأن تُروى ويُنتفع بما فيها من مغازي. لكنها جديرة أيضاً برواية مستقلة نقتصر منها الآن على الإشارة إلى أن مصر ولبنان خضعتا بعد محمد علي مباشرة إلى عملية غشل دماغ جماعية على تفاوت في المعنى بالنسبة لكل منهما لا يمكن أن تكون إلا مُعداً لها ومدروسة تركزت بشكل خاص على المؤسسات الإعلامية والتربوية. حيث صار لبنان ميداناً لغزو تربوي شامل مسلح حتى الأسنال بالأجهزة والخبراء والأفكار، نجح في تحويل هويته الثقافية وولائه العاطفي إلى الغرب مما كان له أبعد الأثر سياسياً وثقافياً واقتصادياً عليه أولاً بالذات وعلى المنطقة ثانياً. كما صارت مصر حقلً لهجوم إعلامي يصعب وصفه لا تساعه وشموله، رمى إلى الهدف نفسه نوعياً مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية القطرية وخصوصاً العامل الديني. فالاستعمار في مصر افتقر إلى قاعدة محلّية كالتي وفرتها له البئات والمؤسسات الكنسيّة في لبنان لذلك فغنه لجأ إلى استيراد الكفاءات المهيأة فكرياً وثقافياً من لبنان. لسنا ندري وأنّى لنا ما هي الملابسات التي كانت تحيط بصدور كل صحيفة أو مجلة بحيث تنبت كالفطر بالعشرات على أيدي الشوام حول كل ما يخطر بالبال من سياسية وإدارية وحقوقية وصناعية وزراعية وطبية وتاريخية وعلمية بالإضافة إلى صحف التسلية والمجلات المصورة ولكننا لا نشك على الإطلاق أنها لم تكن خارج سلطة الاحتلال البريطاني وإدارته وتخطيطه وما كان يزينه

لمصر وأهلها. ولقد لاحظ مسعود ضاهر بصدق ارتباط ولادة الصحافة التي أنشأها الشوام في مصر بالسياسة التي اتبعها اسماعيل لتغريب مصر. (دور اللبنانيين في الصحافة المصرية إبان الاحتلال البريطاني. مجلة الفكر العربي: 50/ 143) ولكننا لا نفهم لماذا ربط الأمر بإسماعيل وسياسته، وهي وهو لم يكونا إلا تفصيلاً في سياسة الاحتلال البريطاني. وصلة هذه الصحافة بالاحتلال على كل حال لم تكن الثائرة. ولم تتوسع صحافتهم إلى الخرطوم إلا بعد دخول البريطانيين إلى السودان واستقرارهم فيه. (المصدر نفسه). هذا، وليست السيطرة على الإعلام في مصر والتربية في لبنان إلا وجه واحد لعمل معقد متعدد الأوجه، رمى انتزاع هوية شعبنا وتمزيقها، له رجاله وأبطاله ورموزه ممن صاروا فيما بعد وتحت الرعاية الكاملة للسلطة الاستعمارية بناة النهضة وصنّاعها. وما هم في الحقيقة إلا أبناء الهزيمة الراضعون من ثديها المائلون مع ريحها.

تبقى الإجابة على التساؤل الذي طرحناه في مقدمة البحث:

من المخادع، ولماذا؟

من ذا الذي زجّ الدخول العربي في صورة التاريخ العري لهذه الفترة مع منحها صك البراءة ووسام حامل التقدم وباني النهضة؟ الأمر الذي لا يقتصر ضرره على صورة التاريخ ذاته، حيث نتلقى تاريخاً مزيّفاً، بل على صورة المستقبل أيضاً حيث نتلقى وأبناؤنا فيما يتلقون قيم تقدم مشوهة تختلط بالاستعمار ومعاني وجوده. وترسم لهذه الأمة طريق المستقبل في ضوء تجارب تاريخية غير حقيقية ومن الواضح أنه حين يُقدِّم الاستعمار وكافة أشكال التغلغل الأجنبي كعامل تقدم فإن معاني الاستقلال والحرية بل والذاتية نفسها يعني إدراك الذات في مقابل الآخر تهتز مانحة مكانها لموقف ذرائعي لا يبالي من أين تهب الريح ليوجه نحوها شراعه. وتلك هي الأرض النموذجية لنمو سياسة وثقافة واقتصاد طفيلية تستمد عناصرنجاحها من نفوذ الاستعمار. وليس اكتشاف هذه الصيغة بالأمر الصعب فهي من حولنا أنى التفتنا.

ن الصعب أن نتتبع الآن الفكرة والسبل التي تسللت منها، بحيث صارت فيما بعد شبه مسلّمة نقرأها في الأبحاث المتقدمة كما يتلقاها أبناؤنا في مناهج التعليم المدرسية. لأن تيارات الغزو الثقافي تدفقت علينا كالسيل من كل ناحية وصوب، بحيث صار من الصعب علينا أن نقول الآن ماذا أتى ومن أين. ولكن ما يهوِّن أمر الحاجة إلى تحقيق اكاديمي شاق كهذا معرفتنا الأكيدة بأن الفكرة انتشرت في ظل سيطرة الاستعمار المباشرة، وعمله على تدمير البُنية الثقافية المحلية والولاء الشعبي

لها، من موقع المتمكن القادر على ما يشاء . واستناداً إلى مبدأ (ابحث عمن يملك الدافع تصل إلى المجرم) نصل إلى الجواب من أقرب الطرق. ولا نخاله إلا قد صار واضحاً.

منذ أول لحظات اتصال نابليون بالشعب المصري قدم الغازي نفسه كسند للشرعية المتمثلة في السلطنة العثمانية، وكمحرر لمصر من الإقطاعيين المماليك. وعلى الرغم من أن الرجل ومشروعه في الشرق قد سقطا بفضل السياسة البريطانية. وأيضاً على الرغم من أن محمد علي ومشروعه السياسي والتنوي قد سقط هو الآخر نتيجة للمؤامرات الاستعمارية التي لم تترك له لحظة واحدة يلتقط فيها أنفاسه، فإن هذا كله لم يمنع بريطانيا وهي التي كانت تسيطر سيطرة كاملة على مصر بينما تبسط مصر بدورها سلطاناً ثقافياً على المنطقة لا ينازعها فيه منازع من أن تقدم بوسيلة أو بأخرى عدويها كبطلين للنهضة. هذه الملاحظة تطل بنا على طبيعة الاستعمار وهويته الحقيقية كغزو حضاري بقدر ما هو عسكري أو سياسي أو اقتصادي لا يتنكر لمثليه الحضاريتين حتى لو كانوا خصومه عسكرياً وسياسياً واقتصادياً. وفي النهاية ليس تقديم محمد علي متوجاً بأكاليل الغار إلا تقديم للغرب، وهو الذي لم يتبق منه في نهاية السعي إلا تلك الفرصة التاريخية التي قدمها للاستعمار الغربي، فابتهلها هذا حتى النهاية كما قلنا في مرحلة سابقة من هذا البحث.

ابتداءً من الخطاب النابليوني، وانتهاءً بكل ادّعاءات التمدين، تندرج (نهضة) محمد علي في نهج استعماري عريق عراقة الاستعمار نفسه. ولو أن محمد علي اعتمد نهجاً في التنمية غير الاستيراد من الغرب لكان له في تاريخنا شأن آخر يختلف تماماً.

من الجهة الأخرى فعندما توسم كل الفترة التاريخية السابقة على الحضور الغربي بأنها عهد انحطاط دون تمييز، فإن هذا لا يعني إلا لإدانة الذات والحضارة المحلية، ونبزاً لهما بالعجز. وذلك هة الوجه الآخر والملازم لأطروحة عصر النهضة ومراميها.

أخيراً، كيف انطلقت خدعة (عصر الانحطاط) و (عصر النهضة) على شعب بأكمله، بما فيه من مفكرين وباحثين، كل هذا الزمان الطويل؟ اعتقد أن القارئ صار قادراً الآن على الجواب. كما هو قادر على إدراك المغزى الكبير لذلك. فحين تسكت ثلاثة أجيال على الأقل من الكُتّاب والمفكرين والباحثين والمؤرخين على هذه المفارقة التي تحتل مكانة العنوان، وتتفرّع منها عشرات وعشرات من الأحكام التفصيلية ونُدين تاريخنا ظلماً وعدواناً على امتداد قرون فإن من حق المرء أن يتساءل عن حرية التأمل والبحث.